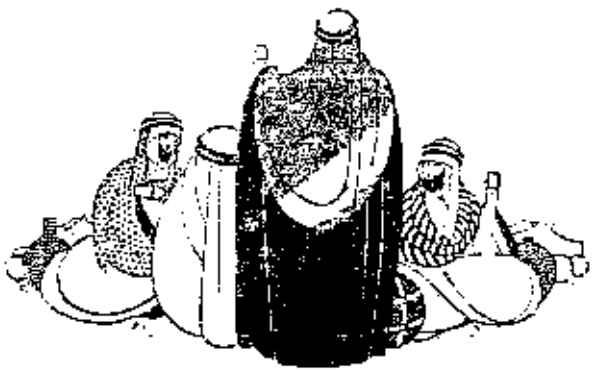

عمر بن عبد الله

ابن ابي ربيعة

— ٢ —

جبرائيل جبور
احد أساتذة الادب العربي
بجامعة بيروت الاميركية

﴿الناحية الجدية في حياة عمر﴾ : لعلّ اخبار حب عمر للنساء وتغزله بهنّ ولهوه وعبثه طغت على سائر اخباره الاخرى بحيث كادت تستأثر بانتباه المؤرخين . ولهذا فالمشهور عند الادباء اليوم ان احداً من الناس لا يستطيع ان يذكر شيئاً عن الناحية الجدية في حياة عمر

ولعل بعضهم يزعم ان عمر لم يجدّ في حياته وانما قضى عمره في عبث ومجون ، ولكن الاقدمين ذكروا ان عمر قتل اصف حياته ولعلك نصفها الآخر ، ومهما يكن من شأن هذه الرواية المضطربة فهي تدل على ان حياة عمر في زعم هؤلاء الرواة القدماء لم تنقض كلها في اللهو . ولقد حاولت ان اتلمس هذه الجوانب الجدية من حياة عمر فلم ار في ما بقي من كتب القدماء ما ينفع غلة ، والذي يؤيد امر ضياع بعض اخباره رواية اوردها السيوطي وهو من المؤرخين المتأخرين من رجال القرن العاشر للهجرة فيها بأن صح فهو يفيد ان عمر جد كل الجد في بعض ظروف حياته . ولعلك تستغرب اذا علمت ان هذا النبأ هو ان عمر نقل الحديث النبوي عن امام مشهور هو سعيد بن المسيب ، وقد عرف اتصال عمر به وبعبد الله بن عباس وهما من اعظم ائمة ذلك العصر ، وان هناك محدثين نقلا عنهُ الحديث هما مصعب بن شيبه وعطاف بن خالد . ولعلك لا تستغرب ان تسمع انهُ كان يعرف القراءة والكتابة فهذا بيّن من شعره وقد كان بالمدينة زمئذٍ كتاتيب يتعلم بها الصبيان . وقد اتصل مع كثير من حبيباته بواسطة الكتب التي كان يبردها اليهن وكنّ يكتبنَ اليهِ ايضاً وقد قال:

ابثت انك اذ اتاك كتابنا اعرضت عند قرائك الغوانا

ومن الممتع ان تعلم انهم كانوا يختمون كتبهم بألوف السلامات كما تفعل العامة في هذا العصر

سلم الله الف ضعف عليكم مثل ما قلتم لنا في الكتاب

وقد ألمّ بالقرآن واستعان بمعانيه في شعره الغزلي

وقد قال : والله قد انزل في وحيه مبيناً في آيه المحكم
من يقتل النفس كذا ظالماً ولم يقدها نفسه يظلم

وله : ان الوشاة كثير ان أطعتهم لايرقبون بنا الاً ولا ذمما

وله : حدثونا انها لي نفثت عقداً يا حبذا تلك النفث
كلما قلت متى ميعادنا ضحكت هند وقالت بعد غد

وليس غريباً على عمر وقد ولد في جيل كانت الحجاز فيه موسماً لحركة دينية كبرى هزت اقطار العالم وكان العرب فيه قد اخذوا بدهشة هذا الدين الجديد ، اقول ليس غريباً عليه ان يتصل باسباب هذه الحركة وان يلم بامورها . وقد كان اخوه الحارث رجلاً صالحاً نقل الحديث عن الامام علي

وكانت المدينة كما ذكرنا مركزاً عظيماً لهذه الحركة ولهذه النهضة الجديدة بما استتبعته من امور الاجتماع والتجارة . وكانت جيوش التي تعمل لهؤلاء العرب في سائر اتمامهم ، وكان عمر احد الورثة لبيت تجارة وثروة كما رأينا فلم يكن غريباً ان يقع عليه ، وقد مات والده وهو صبي ، عبء مسئولية بعض الاعمال التجارية والصناعية . والرواة يذكرون لنا ان كان لهُ عبيد يتصرفون في بعض المهن منهم سبعون في الحوك وان أم والده كانت تاجر في العطر . ولم تقتصر اعماله التجارية على الحجاز فقد سار (فيما يظهر من شعره) في رحلة تجارية الى اليمن طمس الرواة أخبارها فذكروا ان أخاه أرسله الى اليمن لينعهُ من قول الشعر ، وزعم آخرون ان رجلاً باسم مسعدة بن عمرو ارسله في أمر عرض لهُ ، والراجح انهُ ذهب في تجارته وقد ندم على عمله حين حالتهُ هذه الرحلة عن حضور موسم الحج فقال قصيدته المشهورة :

هيهات من أمة الوهاب منزلنا اذا حللنا بسيف البحر من عدن

وفيها يقول بلسان حبيبة تخاطب رفيقتها :

بالله قولي لهُ في غير معتبة ماذا أردت بطول المكث في يمن
ان كنت حاولت دنيا أو رضيت بها فما أخذت بترك الحج من ثمن

ويظهر من شعره أن لهُ اكثر من رحلة الى اليمن حالهُ في احداها مرض ثلاث سنوات وقام برحلة الى البصرة لمعالجة أسنانه كما ذكرنا وقال في طوله فيها شعراً لم يحفظ لنا منهُ سوى :

حبذا البصرة داراً في ليال مقمرات

وزار الكوفة ولا نعلم متى ولا لأي غرض . فقد يجوز انهُ قصدها وراء احدى الغايات العائدات من الحج : وهناك اخبار تشير الى تتبعه عراقية الى العراق . وقد يجوز انهُ كان يزور

أخاه الحارث والي الكوفة مدة لعبد الله بن الزبير وقد مكث فيها وأحب ليلها البارد وماءها وغناء مغنيتين فيها ، وقد قال في ذلك :

يا أهل بابل ما نفست عليكم من عيشكم الا ثلاث خلال
ماء الفرات وطيب ليل بارد وغناء مُسْمعتين لابن هلال

ولهُ زيارة او اكثر لسوريا لم يذكر الرواة شيئاً عنها ولكنهُ ذكرها في شعره في غير قصيدة وبث في هذا الشعر شوقه لمحبوبة حجازية كان قد شق عليها فراقه ، وتراه يستحث ناقه ليصل الى حيثه ولسنا نعلم غرضه في هذه الرحلة ولعله أحد امرين . إما في تجارة وإما في غزوة ولا سيما وهو يذكر في شعره أن فتاته حين ودعته دعت الى الله ان يعيده سالماً مأجوراً ونحن نستبعد جهاد عمر في غير الحب ولكننا لا نكر انهُ قال :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

وقد نشأ في المدينة نشأة أدبية وكان أولاد بعض الاشراف يتأدبون على أيدي معلمين رووهم الشعر ، فألم بشعر الكثيرين من سابقين ومعاصرين وتأثر ببعضهم . والذي يدرس شعره يرى انهُ قد أخذ عن امرىء القيس وحسان بن ثابت والاعشى وعنترة وزهير والنابغة وعلقمة وأبي القيس بن الصلت والخنساء والحطيئة والاسود بن يعفر والمنقب العبدي وعدي بن زيد وغيرهم وهذا يدل على سعة اطلاعه ولعله كان أميل الى تأثر امرىء القيس منهُ الى تأثر اي شاعر آخر . ومن يقرأ قصيدة عمر :

خليلي مرّا بي على رسم منزل

يتخيل انهُ يقرأ شعر امرىء القيس . وكان لعمر أثر كبير في الحياة الادبية في ذلك العصر فكان يعارض بعض الشعراء من معاصريه ، وكان يعارضه آخرون وكان يشيه من هذه الخصومة قيمتها الادبية . والرواة يحدثوننا ان الحزين الكناني الشاعر لقي عمر وعارضه وهجاه وعيره باسوداد ثنيتيه او كسرها وقال :

ما بال سنيك أم ما بال كسرها أهكذا كسرا في غير ما بأس
أنفجة من فتاة كنت تألفها أم ناطحا وسط شرب صدمة الكاس

ولكن عمر لم يرد عليه باكثر من اذهب ! اذهب ! ويلك ! فانك لا تحسن ان تقول

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت انفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد

ولسنا نعلم تماماً متى كان اول عهده بالشعر . وليس هناك أثر من الصحة للروايات التي تذهب الى أن اول قصيدة نظمها كانت :

أمن آل نعم انت غادٍ فمبكر غداة غد ام رائح فمهجر

وانهُ انشدها لاول مرة امام ابن عباس عندما وفد عليهِ ابن الازرق . فقد كان وفود ابن الازرق حوالي عام ٦٥ هـ . وكان عمر حائذٍ في السابعة والثلاثين من عمره . وقد نسب اليهِ شعر قيل في واقعة الجمل التي وقعت وهو في الثالثة عشرة من عمره ولم يكن هذا بغريب على شاعر مطبوع مثل عمر ، ويظهر انهُ نظم في صباه وشبابه شعراً كثيراً غثًّا حتى اذا قويت ملكة الشعر فيهِ ونظم الشعر الجيد قال جرير ما زال يهذي هذا الشاب حتى قال شعراً

وهناك شطر من حياتهِ قضاه بغير هذا اللهو الذي عرف بهِ وقد غالى بعض الرواة فجعلوه نصف حياته بل اكثر من النصف ، ذلك ان عمر لم يجاوز السبعين من عمره . ولكن هؤلاء الرواة اطالوا عمره فجعلوه ثمانين ثم اشفقوا ان تنقضي هذه السنوات كلها في الاثم والمنكر فأتابوه بعد الاربعين وقالوا فتك (٤٠) ونسك (٤٠) وهو لذلك قد فاز بالدنيا والآخرة . والواقع انهُ لم يتب بعد الاربعين ولم يكن لهوه في سنواته الاخيرة كلهو الشباب . وكل ما في الامر ان عمر لما ما امكنهُ ان يلهو حتى اذا فترت سورة اللهو بهِ بكى شبابه ثم كبر فاخذ ينصرف الى ما يقتضيه وقار الشيوخ من هدوء وسكون . ولعلهُ مال الى امور الدين فأثر ما اثر عنهُ من حديث

ولعل اخفى ما في تاريخ عمر موته . وهو شيء غريب فالرواة والمؤرخون قد عودونا ان يختلفوا في امر ولادة من يترجمون حياته لان احداً من الناس لم يؤت النبوة ليعلم ان هذا الصغير الذي يوضع سيكون له شأن . اما ان يختلفوا في ظروف موت شاعر طبق العالم العربي صيته فهو امر ذو بال . ولست ارى مجالاً لاسرد روايات موته المختلفة بالتفصيل فالبعض قد اماتهُ مجاهداً في دهلك (جزيرة في البحر الاحمر) وزعم ان عمر غزا في البحر مجاهداً فاحترقت سفينة وغرق شهيداً . ولعل صاحب هذه الرواية هو من هؤلاء الذين اشفقوا على عمر فاتابوه نصف حياته ودفنوه الى البحر غازياً ليستشهد ويفوز بالدنيا والآخرة

وزعم البعض الآخر ان عمر نظر الى امرأة جميلة شريفة في الطواف فذهب عقله فكلمها فلم تجبهُ فذكرها بشعره وقال فيها :

الريح تسحب اذيالاً وتنشرها يا ليتني كنت من تسحب الريح

فبلغها شعره وجزعت منهُ وقيل لها اذكريه لزوجك فانه سينكر عليهِ قوله فيك فقالت : كلاَّ والله لا اشكوه الاَّ الى الله ثم قالت اللهم ان كان نوّه باسمي ظالماً فاجعله طعاماً للريح فضرب الدهر من ضرباته ، ثم ان عمر غدا يوماً على فرس فهبت ريح فنزل فاستتر بسلمة فعصفت الريح فحدثه غصن منها فدمي وورم به ومات من ذلك . ولعل اصحاب هذه الرواية هم من الذين شاؤوا ان ينتقم الله من عمر فاماتوه بدعاء امرأة شريفة حاول التعرض لها . ولو شئت ان اعدد اخبار من

ماتوا في التاريخ العربي بدائه اخذ الناس عليهم لطائل في المقام

وهناك رواية لا تشير الى شيء صريح مفصل عن أمر موته ولعلها أقرب الروايات الى الصواب . قالوا لما مرض عمر مرضهُ الذي مات فيه جزع اخوه الحارث الخ . . . . . وهذه الرواية ان صحت تشير الى أن عمر قد مات على البيد في خلافة الوليد بن عبد الملك ويجب ان يكون قد مات من مرض لا من حادث مما ذكرنا . وهناك اخبار تشير الى انهُ كان آخر حياته كالمقعد يتوكأ على مولى لهُ ولست ادري كيف يمكن لمثل هذا ان يغدو على فرسه او ان يغزو في البحر . ومهما يكن في الأمر فان عمر مات قبل السبعين

ولعلَّ للبرداء « الملاريا » أثراً في تهديم جسم هذا الشاعر الجليل ، فقد كانت تنتابهُ من حين الى حين وكانت أقوى نوباتها لهُ في رحلة ارتحلها الى اليمن بعيد أهن اهله فلم تفارقه ثلاث سنوات

ولعلهُ مات غريباً عن وطنه فاني لا أرى أعظم من هذا سبباً يدفع الرواة الى الاختلاف في أمر موته . ذلك أهم ما في حياة عمر من جد الأمر وما كنت أظن ان الناس يلتفتون الى عمر لو اقتصرت حياته على هذا بل انا أعلم ان بعضهم لا يهمه من امر عمر سوى ما اشتهر به عمر ألا وهو حبه وشعره

(حبه) : يزعم البعض ان عمر لم يحب بقلبه وانما أحب بعقله ولسانه . ويدللون على هذا بتعدد محبوباته ويصرحون أن من أحب غير واحدة فقلبهُ لم يحب . وكنت اود لو كان المقام يتسع لي لأظهر فساد هذا المذهب ، ولكني أعلم ان كثيراً من الناس قد خفقت قلوبهم لأكثر من شخص . واذا كانت العوامل التي توقظ الحب وتحرك القلب وتوقد الحس وتلهب العاطفة قد وجدت في شخص فلست أرى ما يمنع ان يحب الواحد اكثر من شخص . ويتهمون عمر في حبه لأنهُ حضري لا بدوي ويدللون على ذلك في انهُ قلما صدق للحضريين حب أو تبقى لهم صبابة وكل حضري يعلم فساد هذا القول

واذاً فرأيي انهُ ليس هناك من سبب يحملنا على اتهام عمر في حبه . فليس الحضريون مكذبين في عشقهم ولا المعددون خائنين في حبهم ولم يكن عمر كاذباً في حبه حينما ترك الحجاز وراء فتاة احبها الى العراق يشيعها ، ينزل بنزولها ويرحل برحيلها حتى يردا العراق فتزوجه بالتي هي احسن ويعود وقلبه معها بعد ان وعدته الموسم القادم . ولم يكن عمر كاذباً في حبه حينما تزوجت الثريا وانتقلت الى بلد بعيد فانهُ لم يهجر حبها ولا سلا ذكرها بل سار وراءها يتلمس خطاها على اديم البيداء الفاصلة بين الشام والحجاز وكتب لها وقد بلغه فراقها متوجعاً :

كتبت اليك من بلدي كتاب موله كمد
كئيب واكف العينين بالعبرات منفرد

يؤرقه طيب الشوق بين السحر والكبد
فيسك قلبه بيد ويمسح عينه يد

وارادت الثريا اختبار حبه فدست له من الطائف وهو بمكة من خدعه وانبأه أنها ماتت فاعتلى صهوة جواده لساعته واستحثه الى الطائف وقد اقلقه النبأ وازعجه فرآها تنتظره وادركت انه المحب الامين

اما هذه العوامل التي كانت تدفع عمر الى الحب فمتعددة شأنها اليوم وأهمها الجمال فقد كان مغرىً به او على تمييره الخاص موكلاً به يتبعه اني رآه . وكان قلبه طوع هذا الشعور بالجمال فكان يخفق لهُ . ويظهر انهُ كان دقيق الحس في ادراك الجمال فلا يكاد يلمسه في وجه فتاة حتى يضطرب قلبه لهذا الشعور الذي عمره ولهذا النور الذي سطع لعينيه فيحاول في فنه ان يجلوه للناس كانما هو خاف عن اعينهم فهو والحالة هذه قد احب بحبه ثم بقلبه

و في كل اخبار عمر ذكرٌ لفتاة احبها الاَّ وقد ذكر الرواة عنه انها كانت من اجمل نساء دهرها . واذا كنت تريد معرفة عدد محبوبات عمر فليس عليك الاَّ ان تعدد الجميلات في ذلك العصر ممن كان يمكن ان تقع عينه عليهنَّ او يتصل به علمهنَّ . واذا كنت تريد ان تعرف الجميلات في ذلك العصر فليس عليك الاَّ ان ترجع الى شعر عمر فقد خلد ذكرهنَّ بل لقد كان بعضهنَّ يرينَ دليلاً على الجمال ان يذكرن في شعر عمر . ولقد اعترضت الثريا ذات يوم على شعر بلغها قاله عمر في امرأة يظهر انها لم تكن جميلة الوجه او الثريا كانت تغار منها فقالت : انَّى لهُ ما أكذبهُ او ترتفع حسناء بصفته لها بعد اليوم !

ولقد شهر في تقديره للجمال الى درجة ان احتكمت اليه ذات يوم سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة في أيهما اجمل فقال لعائشة أنتِ أجمل وقال لسكينة أنتِ أملح وأرضى كلتيهما

ويطول بي المقام لو فصلت لكم حوادث عمر مع من زعم ان لهُ علاقة بهنَّ ، فهنَّ كثر . وقد ذكر في شعره اسماء صريحة لاكثر من عشرين امرأة بعضهنَّ من اشهر نساء الاسلام على الاطلاق . ويكفي ان اذكر منهنَّ الثريا بنت علي بن عبد الله وعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وكفى باكثر من خمسين اسماً عن فتيات جيل بيننا وبين معرفتهنَّ ولعل اصدق حب عرف عن عمر واقواه قد قسم بين ثلاث هنَّ الثريا وعائشة وزينب بنت موسى الجحية ، وقد أفلتنَ من يده جميعاً فزوجنَ واعقبنَ زواجهنَّ لوعة وحسرة . وقد كنى عن فتاة باسم نعم وكنى عن اخرى باسم هند وهما ان لم تكونا من النساء الثلاث اللواتي ذكرنا فقد شاطرتاهنَّ قلب عمر . وقصص عمر مع حبيباته من اجمل القصص وقد انتشرت في اكثر كتب الادب العربي وارجو ان يكون في كلمتي هذه حافز للقارىء الكريم ان يطالع هذه القصص الشيقة الممتعة